



النكسة في بعدها الحضاري

بقلم : غازي الربيعي

دارت الآراء التي عللت الانتكاسة الاخيرة حول محورين :

أولهما : يعلّل الانتكاسة بعوامل خارجية مثل : الاستعمار ، الخيانة الخ ..
ثانيهما : يعلّل الانتكاسة بعوامل داخلية ذاتية تنبع من نفس الانسان
العربي وتمتد الى مختلف أبعاد الحياة العربية من اجتماع واقتصاد
وسياسة الخ ..

وقد كان هذان هما المحوران اللذان دارت حولهما الآراء التي عللت نكبة ٤٨
وقد ركزت أجهزة الاعلام المرتبطة بالحكومات العربية آنذاك على محور التعليل
الاول ، وقد اوهمت المواطن العربي بأن بعض التغييرات الشكلية الهيكلية
كاستبدال زعماء بزعماء ، ومؤسسات بمؤسسات كقيلة باعادة الصحة
والحيوية لمجتمعنا .

٥٦ - ٦٧ ، مما يجعلنا نتيقن بأن
التغيير الذي لحق الانسان خلال
هذه السنين الطوال منذ مطلع
النهضة حتى الآن ، انما كان تغييرا
شكليا لم يمهّد التصدع في بناء الانسان
العربي ، ولم يشفّه من أمراضه كما
كان يعتقد كثير من الناس .
وبالمقابل فاننا نقول : ان بداية
انتصارنا تتحقق مع بداية التكوين
الصحيح للانسان العربي ، ويتم
الانتصار مع تمام بناء هذا الانسان .
ان هاتين الحقيقتين أو قل
الحقيقة ذات الوجهين مؤكدة دينيا
وتاريخيا :

ليس من شك بأن تخلخل الانسان
العربي هو العامل الرئيسي وراء
النكسة الاخيرة ، وان أي تحليل
لاسباب النكسة لا ينصب على الاحاطة
بهذا الانسان ، وفهم ظروفه ،
وداخليته ، تحليل ناقص .
وان الانتباه الى هذه الحقيقة
- حقيقة تخلخل الانسان العربي -
وابرازها في زحام الاحداث ، وايلاءها
الجهد الأوفى دراسة ومعالجة ،
يمكن أن يجنب أمتنا نكسات أخرى .
وقد ترسخت حقيقة تخلخل
الانسان العربي من الهزائم المتتالية
التي لحقت بأمتنا في حروب ٤٨ -

دينيا : فإله تعالى يقول في القرآن الكريم « أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ونحن لم نغير ما بنفوسنا ولم يتغير الواقع المحيط بنا نحو الأفضل ، لذلك لم يغير الله ما بنا من انكسار وهزيمة وتقهقر .

تاريخيا : حينما حدث التغيير في الانسان العربي ، وحوالته عقيدة الاسلام الى مسلم ، كانت الانتصارات التي لا تعرف الهزائم . وايضا حينما كان الخور والفتور ينتاب النفس المسلمة في بعض مراحلها التاريخية ، ثم تعود طاقات التغيير الحقيقي لتملأها ثانية ، فيتغير الواقع حولها فعلا ومباشرة .

لقد كانت محاولات التغيير - في الحقيقة - دائبة الحدوث في منطقتنا منذ مطلع النهضة الحديثة بفعل عوامل محلية وخارجية ، وقد انتهت هذه المحاولات الى نتائج اما شكلية تناولت المظاهر والاطر ، واما جزئية لم يتعد اثرها فئة محدودة من الناس ، واما مؤقتة فرضتها قوة السلطة ولم يتفاعل معها معظم أبناء الأمة فانزاحت عند أول متنفس .

والسؤال الذي يفرض نفسه بالحاح : لماذا لم ينجح أي تغيير في بناء الانسان العربي المتكامل ؟

قبل أن نجيب على هذا السؤال نطرح سؤالاً آخر : ما هي محاولات التغيير التي جرت في المنطقة ؟ أو ما هو بعضها ؟

بدأت محاولة التغيير الجديدة والفعالة في منطقتنا منذ احتلال الانجليز لمصر ، واستمرت تتقاذفنا بعدئذ - قوى التغيير العفوية والمخططة ، وقد اتجهت جميع المحاولات الى أوربتنا ، ويمكن أن نمثل باثنتين منها :

١ - المحاولة الديمقراطية :

تزعّمها الانجليز ، وكانت تهدف الى جعل المثل الاعلى للمجتمع العربي الحياة الديمقراطية بكل دقائقها من : احزاب ، وبرلمان ، وصحف ، ودستور ، وسلوك الخ . . . وبالفعل فقد عاش مجتمعنا النظام الديمقراطي في مختلف مناحي العالم العربي ، إثر نجاح ثورة ١٩١٩ في مصر مع تفاوت في الصور المطبقة ، ثم تداعى هذا النظام في الخمسينيات .

٢ - المحاولة القومية السورية الفرعونية :

نادت هذه الدعوة بالعودة الى التراث الفينيقي في بلاد الشام والفرعوني في مصر كأساس حقيقي لشخصية المنطقة القومية والحضارية ، وهي تقتدي في هذه العودة بتجربة أوروبا الحالية حينما عادت الى التراث اليوناني في الفكر والسياسة والفن والمجتمع الخ وكان ذلك أساسا لنهضتها الحالية . لكن هذه الدعوة اندثرت واقعيًا في مصر وفي بلاد الشام ، مع أن الظروف التي تهيأت لدعمها ودعمها لم تتوفر لغيرها من الدعوات ، فقد

الاجتماعية ، الاقتصادية ، الفكرية ،
السياسية الخ

والسؤال الآن : كيف ادت هذه
الشخصية الحضارية التاريخية
دورها في الحيلولة دون نجاح
الأوربة ؟

علينا ان نوضح قبلا صورة
الصراع بين اية شخصية حضارية
تاريخية والمؤثرات الأوروبية ، لكي
نفهم - بالتالي - الصورة التي
أفشلت فيها شخصيتنا الحضارية
التاريخية بالذات عملية أوربتنا .

بدأت عملية الصراع بين أوروبا
وبين الأمم الأخرى في الأرض منذ أن
أمسكت أوروبا زمام الراية الحضارية ،
ومنذ أن بدأت تستعمر الأمم
الأخرى .

وقد اتضحت آلية الصراع عند
كل أمة في الصراع الذي نشب بين
القيم الأوروبية وبين شخصيتها
الحضارية التاريخية ؛ هذه
الشخصية الحضارية التاريخية التي
تحمل في طياتها موروثات القوة
والضعف ، الصحة والمرض ، الصلاح
والطلاح ، المعقول والخرافة ..

ومن الطبيعي أن تتساقط موروثات
الضعف والمرض والطلاح والخرافة في
هذه الشخصية الحضارية ، وتتبلور

وجهت الدراسات الاستشراقية
والآثارية من أجل خدمتها في مرحلة
مبكرة من مراحل التفتح الذهني
في المنطقة .

إذن قد فشلت أضخم محاولتين
لأوربتنا .

وبالمقابل لماذا نجحت الأوربة في
مناطق تشبه ظروفها الحضارية
ظروفنا ؟

فقد سادت الشيوعية في الصين .
وقد سادت القيم الغربية في
اليابان .

نعود لنسأل : لماذا نجحت الأوربة
في بلاد الشرق الأقصى ، ومازالت
تتمتع في بلادنا ؟

يرجع تحقق الأوربة في مناطق
كالصين واليابان وعدم تحققها في
منطقتنا ، مع تعرض كل هذه
المناطق إلى المؤثرات والضغط
نفسها ، يرجع ذلك إلى شخصيتنا
الحضارية التاريخية التي منعت
انسياقنا الكامل في تيار الأوربة .

ما الذي نقصده بالشخصية
الحضارية التاريخية ؟

نقصد بالشخصية الحضارية
التاريخية جماع الخصائص التي
ورثتها المنطقة خلال الحقبة المتتالية
في مختلف أبعاد الحياة : النفسية ،

موروثات القوة والصحة والصلاح
والمعقول فيها أثناء عملية العراك .

فإن غلب نصيب الضعف والمرض
والطلاح والخرافة في هذه الشخصية
الحضارية التاريخية أسفر الصراع
عن نجاح الأوربة .

وبالعكس إن غلب نصيب القوة
والصحة والصلاح والمعقول في هذه
الشخصية الحضارية التاريخية
أسفر الصراع عن فشل الأوربة ،
وتبلور هذه الشخصية ، ونماؤها ،
واحتمال شق طريق حضاري
جديد .

وبالنسبة لشخصيتنا الحضارية
التاريخية فقد تحفزت في مواجهة
الخطر الدايم منذ غزو نابليون لمصر ،
وانشطر مجتمعنا إلى شطرين ،
وتجلى الصراع بصورة واضحة في
نهاية القرن التاسع عشر وبداية
القرن العشرين ، فحيثما التفت
آنذاك وجدت صوتين يتصايحان ،
ونموذجين يتعاركان .

وقد صمدت أمتنا أمام محاولات
الأوربة وأفشلتها بفضل شخصيتنا
الحضارية التاريخية التي تغلب
عناصر القوة والصحة والصلاح
المعقول عليها .

ويمكننا الآن أن نحدد مفهوم
شخصيتنا الحضارية التاريخية على

ضوء التحليل السابق بشكل أجلى
وأدق فنقول : إن شخصيتنا
الحضارية التاريخية هي جماع
العقيدة الإسلامية مع الحياة
التطبيقية لها خلال العصور
الماضية ، ومن المؤكد أنه كان
لا يتوازي في أحيان كثيرة نقاء وصفاء
الإضافات التطبيقية مع نقاء العقيدة
الإسلامية وصفائها .

لقد كانت حيلولة شخصيتنا
الحضارية التاريخية دون أوربة
أمتنا خطوة سلبية يجب أن تعقبها
خطوة إيجابية بأن تولد إنسانها
الحضاري المتماusk المتميز الذي
يمكن أن يشق طريقاً حضارياً جديداً
يحرر به نفسه وأرضه ، ثم ينطلق
إلى تحرير العالم .

لكن القوى الغربية استكملت
لتحول دون تحقق هذه الخطوة
الإيجابية ، وصعدت المعركة ،
وجعلتها أشد شراسة ، وأحمى
وطيساً ، وعدلت من هدفها ، فبعد
أن كان أوربة المنطقة أضحى تفتت
شخصيتنا الحضارية التاريخية أو
تذويبها تذويها كاملاً لأنها هي
السياج الحاجز المانع من نجاح
هذه الأوربة .

إن التصريح الرسمي الذي أذاعه

تفتيته ، وفهما أعمق لكيفية هذه المحاولات .

إن المعركة - الآن - بين الدعوة الإسلامية والقوى الغربية لا تتعدى رقعتها إطار ومضمون الشخصية الحضارية التاريخية ، ففي حين أن الدعوة الإسلامية تنمّي وترعى عناصر الصحة والصلاح والقوة والمعقول في شخصيتنا الحضارية التاريخية لتكون رحم إنسان التحرير ، نجد أن القوى الغربية تسعى إلى تفتيت هذه الشخصية الحضارية لتحول دون تجنن مثل هذا الإنسان .

لكن قد يرد سؤال معترض : هل سننتظر حتى يولد هذا الإنسان ؟

إن إنسان التحرير كامل التكوين ، سوي الجذور ، وكان يمكن أن يتم المخاض طبيعياً ، وينهي هذا الوليد عذابات أمتنا ، لكن الغرب وعملاءه مازالا يحولان دون مثل هذه الولادة ، ويجهضان مولود التحرير .

لذلك فالأمر لا يحتاج من أمتنا إن كانت تريد السبيل الأخصر زمنياً إلى التحرير والأوفر مجهوداً ، إلا أن تقطع يد العملاء لتحويل بينها وبين أن تجهض المولود ، وإلا أن تحطم الساطور التي يرفعونها لتمزيقه .

موظف أمريكي في وزارة الخارجية - قسم الشرق الأوسط - في مطلع عام ١٩٦٤ عن أهداف أمريكا في المنطقة شاهد صدق على ما نقول ، فقد أعلن ذلك الموظف أن لأمريكا خمسة أهداف في منطقة الشرق الأوسط ، أحدها : تطوير المنطقة اجتماعياً .

إن تطوير منطقتنا اجتماعياً هو العنوان الدبلوماسي السياسي الناعم لعملية تفتيت شخصيتنا الحضارية ، وخاصة بعد أن يترجم البنتاجون هذا المصطلح ، وتنفذه بوارج الأسطول في البحر الأبيض المتوسط .

وإلا فبماذا نفسر هذه الإنسانية من أمريكا ، واهتمامها بمجتمع الشرق الأوسط في وقت هي أحوج ما يكون إلى هذا التطوير لتلأم - على الأقل - الصدع بين البيض والسود في مجتمعها !!؟!

إن شخصيتنا الحضارية التاريخية هي الرصيد الواقعي المساعد للدعوة الإسلامية في مواجهتها لقوى الأوزية .

لكن هذا الرصيد لا يعفي الدعوة الإسلامية من الجهد ، بل يتطلب منها جهداً أشد في التصدي لمحاولات

نتصور نتائجه الخطيرة في حال تنفيذه ، ويجعلنا نبذل - فسي الوقت نفسه - أقصى طاقاتنا للحيلولة دون تنفيذه .

إن إدراكنا لهاتين الحقيقتين في إطار شخصيتنا الحضارية التاريخية هو الإدراك الصحيح الذي يبطل مفعول بعض أجهزة الإعلام العربية التي تحاول أن تقدم الحل السياسي على أنه صفقة مربحة لنا في حال تنفيذه ولهذا ترفضه إسرائيل .

الخلاصة : إن هدف الغرب على الصعيد الحضاري في هذه اللحظة تفتيت شخصيتنا الحضارية التاريخية بمختلف الوسائل ومن ضمنها الحل السياسي ؛ لذلك وجب على الدعوة الإسلامية في سبيل الوصول إلى إنسان التحرير ليس المحافظة على هذه الشخصية الحضارية التاريخية فقط بل إغنائها بالمضامين الحية من الثقافة الغربية التي تلائمها وتناسبها ، ولن يتم ذلك إلا بعد استيعاب التراث الثقافي الغربي وهضمه .

إن أي حديث عن النكسة لا يستكمل أبعاده ما لم يتطرق إلى الحل السياسي ، فالحل السياسي هو الثمرة التي تجسدت بها النكسة، وآلت إليها خسارتنا للحرب .

والحل السياسي - في الحقيقة - أحد جولات الصراع بين شخصيتنا الحضارية التاريخية وبين قوى الغرب .

وهو - إن تحقق - محاولة ناجحة من المحاولات التي جرت وتجري وستجري لتفتيت هذه الشخصية .

وأقل ما يمكن أن يحققه الحل السياسي قتل حافر الجهاد والصراع في هذه الأمة تنفيذاً للبند القائل : إنهاء حالة الحرب مع إسرائيل .

إن إدراكنا لحقيقة كون الحل السياسي جولة من جولات الصراع بين شخصيتنا الحضارية التاريخية وبين الغرب من جهة ، وتقويمنا له على أساس أنه محاولة لتفتيت هذه الشخصية وتخديرها كما هي الحقيقة من جهة ثانية ، يجعلنا